دور الترجمة من الألمانية إلى العربية
في
نقل الثقافة اليونانية إلى العربية

مصطفى ماهر

عندما يدور الحديث عن انفتاح الثقافة العربية في مصر على ثقافات العالم قديمه وحديثه ، فإننا نعود بذاكرتنا إلى الشيخ حسن العطار من أبناء القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، ودعوته إلى التغيير الذي حدد معالمه في جملته المشهورة « وإن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ماليس فيها » (الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ٣٨) ، وإلي تلميذه رفاعة الطهطاوى ومدرسة الألسن التي كانت هي الجامعة المصرية الأولى التي بدأت تنفيذ هذه الفلسفة الجديدة .

وإذا نحن صرفنا النظر مؤقتاً عن الكتب التي ترجمت للمدارس ذات الطابع العسكري أو الطابع التقني أو العلمي البحت ، ونظرنا إلى الكتب التى تناولت التاريخ والأدب والفلسفة وجدنا أن الاهتمام تركز على نقل الثقافات قبل اللغات ، أي على استخدام العدد المحدود من اللغات العالمية الذي بدأت به مدرسة الألسن من أجل التعرف إلى أكبر عدد ممكن من الثقافات التي استوعبتها هذه أو تلك اللغة . كان من الممكن عن طريق اللغة الفرنسية ، على سبيل المثال نقل ثقافات أخرى قديمة وحديثة أحاطت بها

هذه اللغة . وهكذا كان هناك نوعان من النقل ، النقل المباشر : من قبيل نقل الثقافة الفرنسية عن طريق اللغة الفرنسية ، والنقل غير المباشر : من قبيل نقل طرف من ثقافات الألمان والنمساويين والإيطاليين والإسبان والروس والاسكندنافيين وثقافات الأمم القديمة من يونان ورومان عن طريق اللغة الفرنسية أيضاً . وكان هذا النوع من النقل مؤثراً على نحو لايقل عن النقل المباشر .

فقد ترجم رفاعة عن الفرنسية كتاب « تلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر » Moeurs et usages des nations من تاليف Depping (طبع في عام ١٨٣٣) ، لايتناول أمة بعينها بل أمماً متعددة في العصور القديمة والجديدة . كذلك ترجم عبدالله أفندى حسين عن الفرنسية كتاب « تاريخ الفلاسفة اليونانيين » (طبع فى عام ١٨٣٧) ، عن أصل لا نعرفه على وجه التحديد يذكر جمال الشيال عنوانه على النحو التالى : Histoire des anciens philosophes ، وبهذا دخلت الفلسفة اليونانية محمولة على هودج اللغة الفرنسية . وتدل الطبعات المتكررة التي طبعها الكتاب على مدي انتشاره ؛ وفي مكتبتي الطبعة الثالثة منه وعنوانها :

« تاريخ الفلاسفة / ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى اللغة العربية / الكاتب اللوذعى اللبيب الأريب الألمعي / السيد عبدالله أفندي نجل حسين أفندي المصري / الطبعة الثالثة نقلت من النسخة المطبوعة بمطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٢ / طبع بمطبعة هندية / مصر – القاهرة / سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م » .

ويتناول الكتاب ٢٦ فيلسوفاً يونانياً ابتداء من طاليس وانتهاء إلى زينون مروراً بسقراط وأفلاطون وأبيقور وغيرهم .

أما كتاب « مطالع الشموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر » من تاليف فولتير وترجمة محمد مصطفى البياع (طبع في سنة ١٨٤١) فيهمني منه هنا أنه يدور بالقارىء في بلاد اسكاندنافيا وبولندة وروسيا التي شهدت صولات الملك وجولاته ، فقد

ولد كارل الثانى عشر في استوكهولم في عام ١٦٨٢ وانتصر علي الدنمرك في واقعة كوبنهاجن في ١٧٠٠ ثم حارب الروس البولنديين ، ثم دخل معركة ضد بطرس الأكبر فلم يظهر عليه ، وتحالف مع السلطان التركي أحمد الثالث ، وعاد إلى السويد في عام ١٧١٥ . ومات في عام ١٧١٨ . لا نقول إن القارىء كان يحيط عن طريق الكتاب إحاطة واسعة بثقافات البلاد الاسكندنافية والبولندية والروسية ولكنه كان على الأقل يلم بطرف منها . ويمكننا أن نقول نفس الشيء عن كتاب « إتحاف الملوك الألبا بتقديم الجمعيات في بلاد أوروبا » وهو مقدمة كتاب روبرتسون Robertson عن كارل الخامس ، شارلكان ، ترجمة خليفة محمود عن الفرنسية وطبع في سنة ١٨٤٢ . وظهرت بقية ترجمة خليفة محمود للكتاب في ٣ أجزاء (١٨٤٤ و ١٨٤٦ و ١٨٥٠) بعنوان « إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان » .. وسيرة هذا الإمبراطور مرتبطة أوثق الارتباط بألمانيا والنمسا وإيطاليا وإسبانيا ، ولكن وقائع حياته وحروبه تعرج بنا على فرنسا وشمال أفريقيا .

ويهدينا البحث في الكتب الثقافية الأولى التي خرجت عن مدرسة رفاعة إلى كتاب عن تاريخ إيطاليا ، وكتاب عن امبراطور الروس بطرس الأكبر ، وكتاب عن « سياحة أنكرسيس جوان في بلاد اليونان » ترجمة مجموعة من المترجمين . منهم : عبد الرحمن أفندي وعبد اللطيف أفندي الخ ... وتتعدد الكتب بمرور الأعوام ، ومنها كتاب رفاعة الذي نقل فيه مغامرات تيليماك عن فينيلون . والكتاب مدخل إلى الثقافة اليونانية . فتيليماك ابن أوليس ، تحكي الأسطورة أنه خرج باحثاً عن أبيه .

والخلاصة أننا نجد الثقافة اليونانية ، التي تهمنا هنا خاصة ، تدخل على هذا النحو غير المباشر ، إلى مجالات الاستقبال في مصر الحديثة . بل إن صعوبة اللغة اليونانية القديمة جعلت للطريق غير المباشر أهمية كبيرة إلى أيامنا هذه ، ولم يتغير الوضع إلا بعد استقرار الدراسات اليونانية الكلاسيكية في برامج الجامعة في مصر .

والثقافة اليونانية مهيأة للانتقال غير المباشر أو الانتقال المصاحب لأنها جزء

مكوّن من الثقافات الأوروبية . وإذا أخذنا الثقافة الألمانية مثلاً نجد أن الباحثين فيها يتفقون على أنها تضم عناصر جرمانية ويونانية لاتينية ومسيحية . وربما ضمت المناطق المتصلة بالشرق السلافي شيئاً من التراث السلافي ، والمناطق المتصلة بالشمال الاسكندنافي شيئاً من التراث الاسكندنافي .

ولم يكن استيعاب الثقافة الألمانية للتراث اليوناني على وتيرة واحدة طوال العصور المختلفة من العصر الوسيط إلى العصر الحاضر . أما العصر الوسيط فقد تلقى التراث اليوناني عن طريق اللغة اللاتينية بصفة أساسية حتى إن قصة الإسكندر المنسوبة إلى كاليسثينيس Kallisthenes لم تُعرف في العصر الوسيط في صياغتها اليونانية بل في صياغة فرنسية لأوبري دي بيزانسون نقلت عن اللاتينية ، عن يوليوس فاليريوس Julius Valerius . كذلك عرفت فلسفة أرسطو عن طريق النقل اللاتيني ثم تغيرت الأحوال في عصر الهيومانية ابتداء من القرن الخامس عشر ، وظهر علماء متمكنون من اليونانية ، وبدأ القراء الألمان يعرفون الثقافة اليونانية في أصولها وفي مترجمات منقولة عن الأصول . وعندما جاءت مرحلة الكلاسيكية ، التي برز فيها جوته وشيللر وهولدرلين ، اهتم الكتاب والشعراء بمحاكاة النماذج اليونانية وبخاصة في المسرح ، وتأثروا في ذلك بالكلاسيستية الفرنسية في القرن السابع عشر . وشهدت فترة الرومانتيكية فيما شهدت من اتجاهات تنطلق من عشق الثقافة اليونانية والاندماج فيها . ومايزال التفاعل مع الثقافة اليونانية ركناً من أركان الثقافة الألمانية ومعيناً لاينضب .

فليس غريباً أن ينتقل إلينا الكثير من مقومات الثقافة اليونانية عن طريق النقل غير المباشر والنقل المصاحب لما ترجم عن الألمانية . ولعب هذا النوع من النقل دوراً مساعداً ومعمقاً بعد أن تتابعت أجيال المتخصصين في اليونانية . والحديث عن الثقافة اليونانية يشمل التاريخ والفلسفة والفنون التشكيلية والأدب والأساطير خاصة ويرتبط بأسماء أعلام كبار ، كما يرتبط بأسماء عدد من المصنفات الكبيرة ومن العناصر . أما الأعلام الكبار فمن أمثلتهم : هومير وأرسطو وأفلاطون وإسخيل . وأما الأعمال الكبيرة

فمن أمثلتها : الإلياذة والأوديسا والمنطق وفن الشعر والجمهورية . والعناصر أو المواد المضمونية نذكر منها : أوديب وبجماليون والأوليمب . ومنها مادخل في سجل المعلومات العامة وما قد تتضمنه برامج الأسئلة والفوازير والكلمات المتقاطعة .

انتقلت طائفة من هذه العناصر اليونانية عن طريق ترجمة كتب مؤسس التحليل النفسي زيجموند فرويد إلى العربية ، وهي كتب ألفها بالألمانية ، وإن نقلت إلى العربية عن طريق الإنجليزية والفرنسية ، وحظيت باهتمام كبير وانتشرت انتشاراً واسعاً بطبعاتها المتكررة ، وانتشرت معها كلمات مثل أوديب وإلكترا ونرجس بما يرتبط بها من تلخيص للأساطير اليونانية المرتبطة بها . ساعد هذا النقل غير المباشر والمصاحب عن الألمانية على تثبيت هذه العناصر في فكر المتلقي المصري ، وربما العربي ، ولكنه في الوقت نفسه صبغها بصبغة معينة بأن ربطها بالعُقَد المعروفة في التحليل النفسي . وهذه مشكلة أساسية في الاستقبال : المستقبِل يصبغ المادة المستقبَلة بربطها بارتباطات أخرى لم تكن فيها أصلاً .

قلنا إن التراث الثقافي اليوناني أثر أثراً كبيراً على الكلاسيكية الألمانية التي كانت على علم بما استوعبته الكلاسيستية الفرنسية من هذا التراث . هكذا كتب جوته مسرحيته « إفيجينيا » التي صاغها أربع مرات بين عام ١٧٨٦ وعام ١٧٩٧ ، واعتمد في الموضوع على تراجيديا أوريبيد أولاً وعلى أعمال غيره من اليونانيين القدامى وبخاصة إسخيل وسوفوكل ، وعرف بطبيعة الحال إيفيجيني لراسين . ونقلت هذه المسرحية إلى اللغة العربية على الأقل مرتين ، ترجمها نثراً محمود إبراهيم الدسوقي وشعراً دكتور محمد عبد الحليم كرارة . ويهمني أن أبين أن ترجمة الدكتور كرارة عن الألمانية صحبتها عملية نقل مصاحب لموضوعات هامة من التراث اليوناني ، فقد خصص المترجم ربع الكتاب للتعريف بالأساطير اليونانية التي لايمكن فهم المسرحية فهما جيداً إلا اعتماداً عليها . من ص ٩ إلى ص ٤٧ « مقدمة للمترجم عن الأساطير اليونانية » وهذه المقدمة عمل متميز في حد ذاته يحسب للدكتور كرارة في نقل التراث اليوناني القديم . وهو

يبين فيها قيمة معرفة الأساطير اليونانية القديمة فهي أولاً دخلت الآداب الأوروبية وأصبح « الأدب الإغريقي المثل الأعلى للأدب الغربي المتمثل في « البساطة النبيلة والعظمة الهادئة » . وعبارة « البساطة النبيلة والعظمة الهادئة » من صياغة ڤنكلمان . ويضيف الدكتور كرارة أن الأساطير اليونانية باقية في الغرب إلى يومنا هذا « تشع نوراً على الغرب الحديث » ، وهي من ناحية ثالثة « قيمة جمالية رائعة » دائمة . ويرى الدكتور كرارة « أن الأدب الشرقي والعربي على الأخص ليس به حاجة للاستعارة من اليونانية أو معتقداتها » وهو رأى أظنه متعجلا لأن إسهامات الدكتور كرارة تهدف إلى عكس ذلك .

ثم يشرح المترجم تعدد الآلهة عند اليونان ، وكيف أن الآلهة تمثل قوى طبيعية ، وتمثل الإنسانية الكاملة أيضاً . ويبين أن الآلهة كانت تتصارع وتأتى بأعمال من نوع أعمال البشر كريمة أو خبيثة . ومن فوقها الأقدار MOIRAI . ثم يحكي أسطورة الخليقة اعتماداً على هومير ثم اعتماداً على أورفيوس ثم على هيسيود . ويحكي عن التيتان والتيتانات ، وعن آلهة الأوليمپ . وبعد هذا العرض يتحدث عن إيفيجينيا إبنة أجاممنون وكليتمنسترا ، أخت أورست وإلكترا وكريسوثيمس . وقدم المترجم إلى القارىء معلومات مستفيضة عن عناصر متعددة من الثقافة اليونانية مثل الفروة الذهبية وقصتها وكيف دس هرميس كبشاً له فراء ذهبي بين الغنم الذي ورثه أتريوس وأخوه ثيستيس ، فلما جاء موعد وفاء أتريوس بنذره أخذ الكبش وذبحه ولم يقدمه كله قرباناً إلى الإلهة أرتميس ، بل قدم اللحم فقط واحتفظ لنفسه بالفروة الذهبية ، فثار الخلاف الدامي بين الأخوين .

ويصل تتبع الخطوط إلى أجاممنون ابن أتريوس الذي كان قد ندم على فعلته ، وإلى هيمنة أجاممنون على ميكينيا وكورنثا وكليونا وأراثيريا وسيسيون وهيربرسيا وجونوساوبيلينا وايجيوم وايجيالوس وهيليس ثم نعلم أن أجاممنون قتل ابن عمه تنتالوس صاحب بيزا وتزوج أرملته كليتمنسترا ، رغم أنفها ، وهي بنت تانداريوس ملك اسبارطه وزوجته ليدا . أما أخوه منيلاوس فقد تزوج أختها هيلينا ، وتربع على عرش

اسبارطه . وأنجبت كليتمنسترا لأجامنون ولداً هو أورست وثلاث بنات : ايفيجينيا وإليكترا وكريسوثيمس .

وتتضمن المقدمة عرضا لحرب طروادة التي بدأت على أثر اختطاف باريس بن بريام ملك طروادة لهيلينا زوجة منيلاوس . وبنشوب حرب طروادة تتحرك أحداث مأساة إيفيجينا التي كان المفروض التضحية بها لتتحرك سفن أجاممنون ، ولكنها أخفيت واتخذت هيئة كبيرة كاهنات الإلهة ارتميس (ديانا) . وينتهى المترجم إلى شرح موضوع إيفيجينا مسرحياً عند أوريبيدس ، وما أدخله جوته من تعديلات . وليس هذا هو الإسهام الوحيد الذي نقل به الدكتور كرارة طائفة أساسية من مكونات الثقافة اليونانية ، بل تتضمن المسرحية عدداً لايحصى من الملحوظات الهامشية تتناول العديد من التفصيلات . فما يفرغ الإنسان من قراءة الترجمة إلا وقد عرف أساسيات الأساطير اليونانية . وغني عن القول أن مثل هذه الترجمة – الشعرية – تحتاج إلى قراءة متعددة ، فليست بالقراءة السهلة اليسيرة .

فلما نشر الدكتور كرارة ترجمته للجزء الثاني من « مأساة فاوست » في أكثر من ٦٠٠ صفحة زودها بملحوظات هامشية توشك أن تكون ربع الكتاب أكثرها يتصل بالأساطير اليونانية والأدب اليوناني ، فالتراث اليوناني هو الخلفية التي يقوم عليها الجزء الثاني من درة جوته .

وإذا كنت لأضيف شيئاً من خبرتي في مجال الترجمة من الألمانية إلى العربية فإنني أشير إلى أن الأدب الألماني الحديث يضعنا دائماً فى موضع الدخول في تفصيلات التراث اليوناني القديم ، على الرغم مما قد يلوح لأول وهلة من أن الأدب الحديث يعزف عن القديم . ففى مسرحية « زيارة السيدة العجوز » التي ترجمتها في مطلع الستينيات أكثر من إشارة تطلبت ملحوظات هامشية ، منها مثلاً ميديا ، التي كتبت عنها في ملحوظة هامشية : « بنت أييتس ملك كولخيس ، وكانت عالمة بالسحر ، فرت مع ياسون زعيم بحارة السفينة أرجو وعاونته بفنها في مصارعته للثيران التي تنفثت

النار ، وتمكنت من تنويم التنين الهائل حارس الفراء الذهبي حتي حصل ياسون عليه وتزوجت ياسون . كذلك أرجعت أبا ياسون إلى صباه ، لكن زوجها مالبث أن خانها فانتقمت منه بقتل أولادها . هذه الأسطورة اليونانية – ميديا – عالجها الأدباء أوريبيدس وسينيقا وكورني وجريلپارتسر » (ص ١٥٤) .

وفي موضع آخر أعلق على ربات القدر عند الإغريق أو المويرات : « المويرات على هيئة غزالات يغزلن حياة الناس كلوثو تمسك كرة الخيط وتتحكم في المولد ولاخسيس تمسك المغزل وأتروبوس تقطع الخيط (ص ٧٨) . وشروح على لابيس وغانيات كورينث وعلى ملكوت الموت بنهريه ستيكس وآخيرون ، وعلى الإيليزيوم دار المنعمين ، والتارتاروس دار عقاب الملعونين (ص ٧٩) وفى معرض الحديث عن الشاعر جوتفريد بن ، صاحب الدعوة إلى الشعر المطلق ، علقت على إيكاروس الذي أشار إليه في أحد قصائده ، وفي كتابي « ألوان من الأدب الألماني الحديث » علقت على إيخو أو إيكو ، صدى الصوت الذي كان اليونانيون يتصورونه في أساطيرهم على هيئة جنية « نيمفه » .... إلى آخر الأمثلة .

والبحث في الترجمات التي نقلت بعض أعمال المستشرقين من الألمانية إلى العربية (وبخاصة تلك التي قام بها د. عبد الرحمن بدوي ، ود. أبو ريده) سيمدنا بالمزيد من الشواهد المتصلة بالتراث اليوناني .

وقد يكون من المفيد أن نجمع البيانات التي تضمنتها المقدمات والملحوظات الهامشية التي زود بها المترجمون من الألمانية ترجماتهم المتصلة بالتراث اليوناني ، ونكوّن منها معجماً نقارنه مثلاً بالمعجم الذي وضعه أمين سلامة لنبين ضخامة دور الترجمة من الألمانية إلى العربية في نقل التراث اليوناني وتثبيته .

المراجع :

- دكتور محمد عبد الحليم كرارة ، إيفيجنيا ، ترجمة ، الاسكندرية ١٩٦٤ .
- دكتور محمد عبد الحليم كرارة ، مأساة فاوست الجزء الثاني ، ترجمة ، الاسكندرية ١٩٦٩ .
- مصطفى ماهر ، ترجمة مسرحية فريدريش دورينمات ، زيارة السيدة العجوز ، القاهرة ١٩٦٤ .
- مصطفى ماهر ، ألوان من الأدب الألماني الحديث ، بيروت ١٩٧٥ .
- مصطفي ماهر ، جوتفريد بن والشعر المطلق ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ببليوغرافيا الترجمة من الألمانية إلى العربية ، من وضع مصطفى ماهر بالاشتراك مع ڤولجنج أوله ، ميونيخ الخ ١٩٧٩ .
- جمال الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٥١ .
- جاك تاجر . حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٥ .
- امين سامي باشا ، تقويم النيل الجزء الثاني ، ١٩٢٨ .
- عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي .
- رفاعة الطهطاوي ، مواقع الأفلاك في وقائع تليماك ب ، بيروت بدون تاريخ .
- علي مبارك ، الخطط التوفيقية .
- أمين سلامة ، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية .